البيضاء وميلانو... توأم تفرقت بهما السبل

الساعة تشير إلى الخامسة والنصف مساء، حركة دؤوبة بكافة الشوارع، ورغم الازدحام الشديد بالطرقات، فالوقت وقت ذروة، وتواصل أشغال إصلاح بعض الطرق التي تآكل جزء منها أو احتاجت إلى صيانة، تصطف العربات، عربات حديثة الصنع طبعا، فالأسطول القديم من مختلف السيارات اندثر واختفى من المدينة، (تصطف) جنبا إلى جنب مع شاحنات وحافلات وسيارات أجرة من أحدث الموديلات، دون أن تحاول التسلل والانزلاق لربح بضعة سنتمترات، ولا أن تضغط واحدة منها على المنبه لتنطلق سمفونية طويلة مزعجة على طول الطريق... الحديث هنا طبعا ليس عن حركة السير بشوارع الدار البيضاء، المدينة العظمى بالمغرب، ولا عن أي مدينة مغربية أخرى، هذا المشهد، الذي نتخيله نحن في أحلام يقظتنا وننسج سيناريوهاته في أفلام نصنفها في خانة أفلام الخيال العلمي، عاد وطبيعي جدا في مدينة من طينة ميلانو، المدينة التي يشبهها الجميع بالدار البيضاء.

في ميلانو، العاصمة الاقتصادية لبلاد روميو وجولييت، وعكس ما عليه الحال في عاصمتنا الاقتصادية نحن، تختفي جحافل الراجلين الذين يراوغون السيارات ويتسللون بين هذه وتلك محاولين العبور إلى الضفة الأخرى من الطريق، بل الجميع، حتى الجالية المغربية المقيمة هناك، التي لا تقطع 15 مترا دون أن تصل إلى أذنك جملة بلغتها العامية، تنضبط فجأة، بقدرة قادر، وتنصاع لقوانين الطريق، لا تعبرها إلا عندما يرسل الضوء الأخضر إشارات تبيح المرور، ولا تتأفف وتتذمر من الاصطفاف أمام ممر الراجلين، صحيح أن الجميع مسرع وعدد مشاغله يكاد تصل عدد شعر رأسه، لكنهم لا يجادلون في احترام قانون السير.

في ميلانو، الأخت التوأم للدار البيضاء، على الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، يستحيل أن تسمع صوت منبه سيارة، في الليل كما في النهار، رغم أن الطريق مكتظة بأنواع العربات وحافلات النقل السريع، والمترو والحافلات الكهربائية وو.. الأكيد أن السائقين هنا، في ميلانو، ليسوا ملائكة، ولا منزهين عن الخطأ، أبدا، بل قد يحدث أن تتجاوز سيارة مسارها المخصص وتكاد تصطدم بالأخرى، وقد يشرد سائق ولا ينتبه لقدوم سيارة في الاتجاه المعاكس أو إحدى المدارات، لكن لا تترنح الأيادي، وتشرئب الأعناق، وينطلق وابل من الشتائم يلحق الملة والدين والكلام النابي وسط عويل المنبهات، كما الأمر عندنا، الذي غالبا ما ينتهي بعراك بالأيدي وتتكون حلقة عامة للفرجة تنمو كما كرة الثلج في بضع ثواني، هذا المشهد "ماين إن موروكو" ينتفي هنا تماما ويتحول إلى إشارات اعتذار وقبول الاعتذار، فيتواصل السير بهدوء تام.

في ميلانو، محج المهاجرين من كل حدب وصوب، كما هو حال الدار البيضاء حيث تلتقي كل الأجناس، ولأن البلاد تعاني أزمة اقتصادية خانقة، أثرت على مستوى المعيشة، يمر مشردون ومتسولون بين الفينة والأخرى، يقطعون شوارع المدينة الكبرى جيئة وذهابا، حاملين كأسا بلاستيكيا، ونادرا ما ينطقون بكلمة "بورفافور" (أرجوك)، أو "كراتسي" (شكرا) حين يجود عليهم أحد المارة ببضعة سنتات. لا يتسولون ولا يستجدون أحدا ولا يدعون بالصحة وطول العمر إلى كافة أفراد العائلة، فردا فردا، في سبيل "صْريف"، كما الحال عندنا، ولا يعنفون غير المتصدقين ويهددون برسم خريطة بالسلاح الأبيض على وجوههم.

مشاهد كثيرة في جولة صغيرة في شوارع المدينة، تفهم منها لماذا انحنى مهاجر على ركبيته وقبل أرضية مطار ميلانو، بمجرد أن وطأت قدماه أرضيته، حينها استغرب أحد الظرفاء المشهد وعلق قائلا "وايلي على شنو بقا فالطاليان ما يعجب، غير بلاتي ودابا يشوف القهرة للي غادي يعيشها". صحيح هناك أزمة كبيرة، ومعاناة أشد مع ضرائب جديدة وبطالة قاهرة، لكن كل هذا لا يجعل الإيطاليين وغيرهم من الجاليات المقيمة هناك، يصبون جام غضبهم على قوانين البلد، الأزمة واقع مر، لكن الحياة تستمر.

هجر المغلي (موفدة الصباح إلى ميلانو)